

مع الفقيد المفكر مولود قاسم والتتاجي حول هموم الوطن والأمة

أ. محمد سي فضيل

شرفني الأخوة الأفاضل الذين بادروا باقتراح الملتقى الدولي حول المفكر الفقيد مولود قاسم نايت بلقاسم بالانضمام إليهم في الساعات الأولى من تأسيس اللجنة التي تعهدت برسم الخطوط العامة للملتقى، والاضطلاع بهذا الأمر الهام، ومتابعة خطوات الإعداد ومراحلها حتى تتوفر للمبادرة شروط وعوامل نجاحها. وقد وقع التمهيد لذلك بتنظيم يوم دراسي محلي بمدينة بجاية تم فيه تكريم عائلة الفقيد من خلال حرمة، وتقديم شهادات حياة من طرف رفاق عرفوا المحققى به عن قرب وجمعوا الوفير من المعلومات حول جوانب عديدة من مسيرته النضالية والثورية والعلمية والوظيفية تلك المهمة التي كان ينظر إليها دائما على أنها وسيلة لخدمة الجزائر وليست غاية يسعى المرء إليها لذاتها، وهكذا سار التحضير للملتقى الدولي جادا بذل الكثير من الجهد، وأحاط أعضاء اللجنة والجهات المتكفلة بالملتقى ماديا وتنظيميا وعلميا بما تستحقه المناسبة من حماس وتصميم على

نجاحها، لذلك تراجعت أثناء المشوار تلك المعوقات والعراقيل الفعلية منها والمفتعلة على السواء وانعقد الملتقى الدولي في موعده المحدد (27، 28، 29 مارس 2005)، بمشاركة وطنية ودولية واسعة كما ونوعا، وبتناول جاد للموضوعات التي تناولت شخصية المفكر والمناضل الراحل مولود قاسم.

ولقد تضافرت جهود المشرفين على الملتقى، مع قرائح الباحثين، فتجسد الوفاء وتحقق النجاح، وأدى الاحياء واجبهم تجاه من أضافوا لذاكرة الأمة وحضارتها ما يضمن لها الاستمرار والتجدد، ويعمق جدلية الأخذ والعطاء بين الموروث وبين كل مولود جديد ومفيد، ولقد برهنت هذه الالتفاتة التي جمعت بين التكريم وبين التوثيق العلمي الذي تستفيد منه أجيال الحاضر وأجيال المستقبل لذلك حرصت على أن تقتصر مساهمتي على تبجيل الفقيه، والتعبير عما بينه وبينني من مودة وتقدير بالاستجداد بالذاكرة استعطفها بل أستفزها لتطلق سراح ما لا يحصى من العبارات والتعليق عن المشاهد والمواقف والأحداث ومن المساجلات القصيرة اللطيفة، ومن الأسئلة والأجوبة والروايات التي تجوب آفاق الحياة وعوالم الفكر وفنون المعرفة وتجيد الوصف والتعليق على السلوكات الفردية، وعلى الظواهر الاجتماعية في بلادنا والبلدان الشقيقة والبلدان المتقدمة جدا والتي تتوق نفسه إلى أخذ ما في حوزة تلك البلدان المتقدمة من الطباع المثلى كالنظام والتفاني في العمل، والنظافة، واحترام الشأن العام، وعشرات أخرى من هذه الخصال.

لم يجمعني وأياه - رحمه الله - مقر عمل، أو إدارة، ولكن لقاءات عديدة جمعتني به منذ الأيام الأولى لاسترجاع الاستقلال الوطني وظلت مستمرة حتى انقطعت بقضاء الله وقدره.

لم أسأل نفسي، لماذا استمرت هذه العلاقة بينه وبين ودية ومتميزة حتى الأجل المأساوي؟ مع أنني لم أتواجد معه في أي موقع من مواقع المسؤولية الهامة التي تولاه مستشارا لرئيس الجمهورية، وزيرا للتعليم الأصلي والشؤون الدينية رائدا وحاميا لملتقيات الفكر الإسلامي، مكلفا بالمجلس الأعلى للغة الوطنية. بعد لأي عثرت لهذه العلاقة الودية المتميزة عن مصدرها البعيد في الزمن، كان ذلك في إحدى المناسبات البعيدة عن الرسميات، كما أنها ليست لقاء سياسيا ولا مصلحيا، كانت صدفة شاء لها أن تنتظم فتجتمع أصدقاء غابوا عن بعضهم زمنا ثم عادوا. وانطلق الحديث بين الرفاق كما ينطلق عادة بين الخلان بسيطا مكثفيا بالسؤال عن الصحة والأهل وظروف العمل ثم يتشعب شيئا فشيئا ويرتقي إلى أوضاع الوطن وأهله، وحال المجتمع، وحال السياسة والثقافة والاقتصاد ثم يعبر الحدود للحديث عن أوضاع الأمة العربية والإسلامية مشرقها ومغربها وعلاقة هذه الخريطة ببقية الأمم ودولها في هذا الكوكب في كل ذلك الحديث الذي ابتدأ عفويا تلقائيا وبقطرات تحول شلالا يكون للفقيد المتميز سي مولود قاسم دوما سهم الأسد - كما يقال - وكان ينتقل بنا من قمة لقمة أخرى برفق حين وأحيانا بصخب شديد حين يصطدم بعقدة من العقد التي نعاني منها على ساحة الوطن خاصة والساحة العربية الإسلامية على الوجه الأعم، لاسيما حين تتزاحم في ذاكرته خيبات أمل متكررة على هذه الساحات كلها. وإذا ما اشتدت الأزمة، وبلغ الشعور بالإحباط الحضاري والثقافي والاجتماعي أشده، استجار سي مولود قاسم بفترات الازدهار الشامل من تاريخنا ورحل في التو واللحظة - ونحن لم نغادر مواقعنا كما تلاقينا - إلى تلمسان وبجاية، وقسنطينة، ورباطات علمية ودينية عديدة حصنت ثغور البلاد، وأخذ يسرد

في يسر أسماء أعلام ضربوا بسهم وافر. في شتى ميادين المعرفة، في الفقه والأدب، والشعر، والفلك والرياضيات والطب والكيمياء وغير ذلك، ويستشهد بالعديد من مدوناتهم التي طبقت شهرتها الآفاق، وعندما وصل به العد لأحد أولئك الأعلام الذي ذاعت شهرته في جبال زاوية وترك خلفا صالحا ورث أغلبهم مآثره وجهاده تحركت في نفسي حالة الاعتزاز بصلة الرحم مع أحد هؤلاء الرواد فقلت لسي مولود إن أخوالى منهم من أيت غبري، فتبسم ضاحكا وأفاض في ذكر الكثير من مآثر أولئك مما كنت أجعله بالرغم من استمرار التواصل بيني وبين أحفادهم منذ أكثر من نصف قرن.

وهكذا تكرر التلاقي بين الفقيد وبينى يكاد يكون بعدد أيام نصف قرن كامل في مناسبات سياسية وثقافية وطنية وعربية ودولية، وفي وهج ملتقيات الفكر الإسلامي التي يصول فيها رحمه الله ويجول حريصا على التنظيم الجيد، والتسيير الحسن لأشغالها والنتائج الإيجابية التي تسفر عنها يتمنى أن تكون خطوة جديدة إلى الأمام لهذا العالم الإسلامي وثقافته وحضارته، حتى لا يكون ذلك الجهد المدفوع بالإيمان والحماس، مجرد نفخ في رماد. وكم يحزنه خطأ أو تهاون أو تقصير يدسه هذا أو ذاك في منظومة العمل المشترك لتحقيق مقاصد منتظرة متعلقة بمصلحة الوطن.

ولا تقتصر ردود أفعاله عن حالة الحزن التي تعتريه بل تتعداه إلى تفاعلات وإسقاطات جديدة بأن تؤخذ بعين الاعتبار. إذ أن التصرفات السلبية التي تحدث من حوله تتحول إلى انفعالات بل إلى عواصف وزوابع ومرافعات حادة ساخنة قوية الحجة يقوم فيها بمقارنات بسيطة وسريعة بين مجتمعات بلغت شأوا بعيداً في تقديرها للنظام، وحرصها على الجودة، وتقانيها في العمل، وتأمينها لعنصر الزمن، وبين مجتمعاتنا التي ضنت

على نفسها باحترام أبسط قواعد الحياة السوية، ويعقب على هذا بقوله : لم نطلب إلا الحد الأدنى، ولم نطلب لحد الساعة اكتشاف المجرات أو سفن ارتيادها !!

رحل الفقيد سي مولود قاسم رحمه الله وفي نفسه أشياء وأشياء عن اللغة الوطنية. كان صادقا وصدوقاً في دفاعه عن اللغة العربية دفاع قناعة، وإيمان، وجزم بأن الأمة التي فرطت في لسانها، لن تقوم لها قائمة، وما أكثر نقاط التلاقي والتماس بينه وبينني في هذا الموضوع، وما أكثر المداعبات اللغوية عبر الهاتف حول مسائل لغوية وهو في مختلف مواقع المسؤولية كما سبق ذكره وأنا في محراب جريدة المجاهد. مساجلات لطيفة ومفيدة، تتبدى أحيانا بحروف الجر وتنتهي بفلسفة اللغة، وقضية "المترادف" وقضايا أخرى في البلاغة و النحو والصرف، وكم من مرة يتصل بي بعد تصفحه للعدد الجديد من المجاهد - ليعاتب عن خطأ أو سهو أو تحريف في فقرة من فقرات موضوع ما كتبه أحد الصحافيين وكم يحلو له أن يشا كسنى في حروف الجر فيقول : يا سي محمد قل لأصحابك : إن حرف الجر "على" لا ينبغي أن يحل محل حرف جر "عن" وكذلك حرف "إلى" لا يقوم مقام "حتى" وهكذا. فأقول: ياك سي مولود قال النحاة حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ! ويجب بأمثلة في منتهى الدلالة والذكاء والإقناع ويقول مستغرقا في الضحك : إذن في رأيك فلان الفلاني يستطيع أن ينوب عن فلان الفلاني في المهمة التي تعرفها! وتتحوّل الملاحظة إلى مداعبة أدبية لغوية مفيدة ومريحة للأعصاب المشدودة.

وكم جرت بيننا مناقشات طريفة حول المترادفات في اللغة العربية منتهية في الأخير إلى أن كل كلمة مرادفة في الظاهر ولكنها في الحقيقة تحمل إضافة جديدة زائدة عما في زميلتها.

رحل سي مولود ومعه حمل بثقل جبل من خيبة أمل في مؤسسات الدولة ودواليبها المعنية بتعميم استعمال اللغة العربية، سيما أثناء تكليفه بتخطيط المشروع والسهل على تنفيذه في جميع مؤسسات الدولة من موقعه نائباً لرئيس المجلس الأعلى للغة الوطنية، والمسؤول الأول في هذه المهمة هو رئيس الجمهورية في تلك الفترة. فالفقيد المؤمن بهذه القضية الجوهرية والحضارية، ومعتبرها في مقدمة عناصر الهوية أو "الإنية" حامل رايتها، وصامد في صدر المعركة مع ثلة يتأرجح موقفها بين "نعم ولكن" ويفضل بعضها خيار " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.

هكذا .. فارقنا الصديق المفكر المكتوي بنار الغيرة على وطنه وشعبه، وأشقائه في الخريطة العربية الإسلامية من الهوة الحضارية الشاسعة الفاصلة بيننا وبين البلدان المتقدمة، راح بغصته وهو متأكد - رغم الأمل الذي لا يتخلى عنه الإنسان - أن المتأخر المستمري لرقدته قد يظل في مكانه مع النائمين، ولكنه في الواقع قابع خارج زمان اليقطين المتقدمين. تلك هي أوجاع النفس والذهن والقلب التي تورق المثقف حامل هموم وطنه وحضارته، تلك الهموم التي تتجاوز المعضلات الآنية في هذا القطاع من حياة الناس ومعاشهم أو ذاك، بل تتعلق بالمسببات الكبرى التي تتطلب معالجة جذرية تتخلى عن الإسعافات وعن مجرد التضميد والترقيع.

مع سي مولود قاسم في رحلة

من السويد إلى السودان في القرن الماضي:

في العشرية الأخيرة من شهر مارس 1986 جمعتنا زيارة رئاسية إلى أصدقائنا في السويد، إنهم بالفعل أصدقاء الجزائر أيام محنة الاستعمار وخلال أعوام ثورة التحرير، كما حدثني الفقيد عن ذلك حديث العارف المطلع في عين المكان عن مواقف هذه المملكة من شعب الجزائر وثورته. أما لماذا لجأت إلى هاتين الزيارتين اللتين جمعتا بيننا فلأن الأسفار كما أكد العارفون، من الفرص الهامة للاستفادة من تجارب الناس والحياة، وهي في الوقت ذاته تساعد على اكتشاف مكنونات القيم النبيلة في الإنسان.

لم ييخل علي سي مولود بما لديه من معلومات اختزنها يوم كان هنا في السويد يؤدي واجبات الثورة التحريرية، فاعتزم إحدى فرص التحرر المؤقت من قيود الرسميات فدعاني وصديق مشترك هو عبد القادر بن قاسي رحمه الله مستشار بالرئاسة، مثقف وسياسي لامع خسرت الجزائر وهو في أوج عطائه.

سلك بنا شارعا في حي غير بعيد عن إقامتنا. كل ما حولنا يذكرنا صارخا بالتفاوت الرهيب بين ما هم فيه وبين ما نحن فيه، الفرق يحسب بالأرقام الفلكية، واليون في كم الأمور ونوعها لا تغني للتعبير عنه كلمة الشساعة.

إنه لا مجال للصمت وسي مولود موجود في الموقع في الشارع الذي نتجول فيه أو في غيره، وها هو رحمه الله يحفزني أن أعرف من هذه الينابيع الثقافية الحضارية التي تغدو وتروح والثابتة في أماكنها. مباني أنيقة منتظمة والمساحات والجناات المزدانة بأشجارها وأزهارها ومسالكها، وعبادها الذين يذكرون نار الغيرة مما أدركه الآخرون، ولكنها غيرة بلا حقد، ومن حين

لآخر يقول لي الفقيد الذي يعاني مأساة الحضارة: شوف، شوف يا سي محمد اسمع، وأجيبه على الفور: انشوف.. نعم ! أما نسمع فلا أمل ! إنني لا أفهم لغتهم كما لا يخفى عليكم ! فيضحك لحد القهقهة. ثم يسخو بترجمة الحلال مما سمع !! ثم يستأنف بث الحزن والأسى من خلال المعلومات التي يفيدني بها والملاحظات المؤلمة الجارحة لقلوبنا جميعا وهي حقيقة.

يقول: أتدري أن هذا البلد الصغير الذي لا تتجاوز مساحته خمسمائة ألف كلم² (500.000 كلم) ولا يتجاوز عدد سكانه ثمانية ملايين نسمة (هذا في سنة 1986) وفي موقعه هذا شمال البلطيق، قريب من القطب الشمالي وهو يعد من البلدان المتقدمة جدا، ولا أتردد في القول بأن مستوى معيشته بالمعنى الشامل للمعيشة أعلى مستوى في العالم، على كل حال نحن والمملكة السويدية أصدقاء نتعاون وفقا لاتفاقيات في عدة ميادين سندها الدعم الذي تلقيناه منهم أيام ثورة التحرير .

هكذا... فالصمت في صحبة سي مولود قليل جدا والحديث غني مفيدا جدا والتكرار تأكيد للرسالة التي يريد أن يبلغها لرفيقه أو محاوره، وهو حاصل أحيانا من قوة الدفع الداخلي الذي يغلى مرجه، وتتناضح فيه أفكاره ومشاعره وتطلعاته، وشوقه لأن تصبح الجزائر والوطن العربي والإسلامي مثل هذا البلد في جوانبه المشرقة الجيدة من تقدمه وعصارة هذا التقدم.

وقبل أن نودع الشارع الذي حوله سي مولود في فترة زمنية قصيرة إلى رواق أحد فلاسفة اليونان رسم بالعبارات النارية صورتين إحداهما لشارع من هذا البلد والأخرى لأحد شوارعنا في وطننا المفدى والمعتدى عليه، فقال: ألسنت معي في أن هذه الحقائق، بأشجارها وأزهارها، ومسالكتها الأنيقة

النظيفة المتوازنة التي حولها أهلها إلى كائنات مثقفة شاء لها أن تكون كذلك !

واستأنف الفقيد حديثه الذي يشبه مرثية أبي البقاء الرندي ولكن في عبارات تجمع بين السخط والسخرية حين يقول: هل داهمك أحد المارة في تجوالنا؟ هل داس على عقبك حتى طارت رجلك من حذاءها؟ هل صبت على رأسك إحدى سيدات الطابق الأول أو الثاني سطلا من المياه القذرة؟ هل صادفنا "شلة" من الأطفال يلعبون بين أرجل الغادين والرائحين بكرة من الخيش أو البلاستيك وفي زوبعة من الشتائم والأوصاف القذرة؟

هل سمعت أحدهم يصرخ بأعلى حنجرتة ينادي صاحبه يا شريكو "أو يا جارو" أو "يا فاميليا" من الطرف الآخر للشارع؟ ! هل مرت سيارة واغتتم صاحبها بعضا من زحام الموقع فعطس، وتتنحج، وجمع بصاقه (معذرة للقارئ الكريم) وأخرج العبوة بقوة شذقيه إلى عباد الله الغادين والرائحين؟ أتريد المزيد يا سي محمد؟ !.

أثنت على سي مولود، وثلثت وأبصمت بالعشر على كل ما اکتوى به - رحمه الله - من هموم وطنية تمس الجواهر، ولا تقتصر على "العرض" ولا على مجرد حالات عابرة معزولة في حياتنا اليومية.

من السويد إلى السودان !

في الرابع من شهر أبريل من عام 1987 من القرن الماضي ! أرسل حزب جبهة التحرير الوطني إلى السودان وفدا لحضور مؤتمر التجمع الوطني، يتألف الوفد من رئيس وعضو مرافق له والرئيس هو الأخ سي مولود قاسم

نايت بلقاسم عضو الأمانة الدائمة للجنة المركزية والمكلف بالمجلس الأعلى للغة الوطنية، والعضو المرافق له هو: "أنا" سعدت كل السعادة حين تلقيت هذا الخبر، إذ أن هذه المرحلة الثانية من الرحلة ستتيح لي فرصة ثمينة لاستئناف الاستماع إلى سي مولود لا سيما وقد مددنا جسورا جديدة بيننا، وممتنا الأواصر التي تجاوزت حدود الأسرة والقبيلة لتسع فضاء الوطن جغرافية وتاريخا وحضارة وثقافة بل لتشمل أحلامها آفاقا بلا حواجز.

ليس من اليسير على المرء أن يستحضر وقائع مر على حدوثها خمسة عشر سنة بمجرد الاعتماد على ما تسخو به الذاكرة طوعا وبدون "استقزاز" ومع ذلك سأدق بابها فقد يجر الحديث بالتداعي ما تلاه أو مما تقدمه من حديث، حلقت بنا طائرة الخطوط الجوية الجزائرية من مطار هواري بومدين يوم السبت الرابع أبريل من سنة 1987 في اتجاه مطار جنيف كمحطة أولى للتوجه بعدها إلى الخرطوم عاصمة السودان الشقيق لحضور فعاليات مؤتمر التجمع الوطني، كما أشرت قبل قليل. ابتعدت الطائرة عن المطار، كما ابتعدت شواطئنا عن أنظارنا فتوغلت في أجواء الأبيض المتوسط، مضيفات ومضيفو الدرجة الأولى في غاية الأدب واللباقة، والاهتمام المتميز بضيوهم المسافرين حتى أوشك الشك أن يفسد ارتياحنا وفرحتنا بهذه المعاملة حين قدرنا بأننا قد نكون مخطئين في الطائرة وفي مسار السفر وزال الشك، فالطائرة جزائرية، والمضيفون والمضيفات من أهلنا وأبنائنا جلدتنا !

فترة الصمت بمعية سي مولود قاسم قصيرة جدا لذلك سارع إلى التعليق على المعاملة التي أتاحت لنا فرصة للتناول فقال لا يخفى عليك أن كل ظاهرة

أو كل موقف أو تصرف مهما كان محدودا في الزمان والمكان يحمل دلالات اجتماعية وثقافية ونفسية وفي بعض الأحيان يخضع لأمزجة شخصية لا تثبت على حال، ونحن من سوء حظنا ! من ذوى طبع تنقطع أوصالهم وأنفاسهم جريا وراء الأفضل والأمثل على الدوام وتلك غاية صعبة المنال رغم هذا البيت الشعري الذي نغنيه كلما استيقظت نخوتنا الغافية :

نحن قوم لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فلنغتتم يا سي محمد ما أتيح لنا من هذه الإشراقات والابتسامات من مضيفينا أهل بلدنا قبل أن يصبح الحال غير الحال، ومن يدريك ؟ ! وأدعوك لنزهة من خلال نافذة الطائرة ومن علو شاهق، وبمثل هذه السرعة.. نزهة بعينيك خلال جبال سويسرا وهي مكسوة بثلوج هكذا دائمة، وعند أقدامها حطت رجالها مدينة جنيف - العاصمة السويسرية - في سهل واسع جميل، منازل أنيقة تسلقت سفوح الجبال متسللة بتوازن وانتظام مع ما يحيط بها و يسربلها من أشجار، وهنا يستأنف سي مولود تأملاته المسموعة حول ما شاهدناه من خلال النافذة فيقول: شفت؟ كيف نجح الحلف المقدس بين الإنسان والطبيعة هنا.. هما طرفان متلازمان في الأبد والأزل. في هذه البقعة من الأرض- وفي أشباهها- يتواصل التعاون الإيجابي بينهما كما يصغي هذا لذلك، وعناية الإنسان بمحيطه يثمر بالضرورة سخاء المحيط على الإنسان بخيراته ويقول سي مولود: بالله عليك يا سي محمد ألا تشبه صفوف تلك الأشجار حتى بعد أن نضت أثوابها عن أغصانها وكذا المنازل والمسالك والحدائق مقطعا من سمفونية العبقري النابغة الأصم الشيخ بتهوفن؟ !! وراح يتحدث عن بتهوفن وعن جملة من موضوعات أعماله

الفنية حديث المطلع والمؤمن بأن الإلمام بأساسيات المعرفة الإنسانية ضرورة ملحة هو فرض لا "نافلة" وهكذا يربط في الحديث العابر الذي كنا نخوض فيه بين الثابت والمتغير، وبين الكلي والجزئي، وبين الجوهر و"العرض" حتى في أشد المعارف "تخصصاً" وأكثرها استقلالية عن سائر المعارف المتداولة بين المثقفين.

نزلنا بمطار جنيف بعد ساعتين -تقريباً- من التحليق، استقبلنا ممثل الخطوط الجوية السويسرية بما تمليه مقتضيات المهنة وتقاليد الاستضافة ولو لبضع لحظات، من أدب واحترام وابتسامات لا تنقطع ثم اصطحبنا إلى الصالون الشرفي بمقر شركتهم بالمطار.

حلقت بنا الطائرة السويسرية من مطار جنيف لتستريح بنا بعض الوقت في أثينا ثم تستأنف تحليقها نحو مطار الخرطوم. الرفيق المحترم مال في بداية هذا المشوار إلى الصمت، والصمت بالنسبة لمثله مجرد تغطية للكآبة وسد منيع للسيل العرم من مخزون الذكريات التي عاشها ومازال يحتفظ بصغيرها وكبيرها في ركن "المحفوظات" من الدماغ، خلال سنوات العمر وخاصة، سنوات ثورة التحرير، في تلك المنطقة من شمال أوروبا حيث يتقاطع نشاط المناضلين مع مواقف الأصدقاء ومواقف الخصوم الألداء على السواء مما صعب على أصحاب القضية نضالهم اليومي وجعلهم كالسراة في حقول من الألغام.

نزلنا بمطار الخرطوم العاشرة ليلاً في الخامس من شهر أبريل 1987. والإقامة بالفندق الكبير المطل على أحد النيلين¹.

1. النيل الأبيض والنيل الأزرق.

في صبيحة اليوم الثاني وجدت رئيس الوفد المؤلف من اثنين: القائد والجندي في حديقة الفندق وقد "غرف" من عبير الزهر ونسائم المحيط ما شاءت له الفرصة أن يغرف ويعب من كل ذلك، أما تحية اللقاء فلن يكون بوسعك أن تسبقه بها لا في الصباح ولا في العشي. بادرت بعد التحية قائلاً: ها نحن في بلدنا وعند أهلنا وفي أحضان تاريخنا وحضارتنا لذلك فسوف لن نشعر بالغربة ! وبعد الديار إذ نحن جميعاً خارج زمان الآخرين، وقد نسيت يومها أن أسأل سي مولود هل زار السودان قبل اليوم أم هي الزيارة الأولى، ومع ذلك فلدني من المعلومات عن هذا البلد الشقيق ما يكفي لوضع كتاب جامع لجغرافيته وتاريخه البعيد قبل الاستعمار وأثناء فترة الاستعمار وبعد استرجاع حريته واستقلاله ومعلومات هامة عن الشخصيات السياسية والدينية والثقافية التي لعبت أدواراً وطنية رائدة من أجل النهوض بهذا البلد الشاسع والزاخر بالثروات الطبيعية والبشرية، وبإنسان العربي المسلم الإفريقي المتميز بتقاليده الأصيلة، وطيبته وأخلاقه العالية، والمعروف بمحاولاته العديدة لخوض تجربة الديمقراطية، ولو كتب النجاح لتلك المحاولات لامتد تأثيرها إلى المحيط العربي بصفة عامة.

وتمت لقاءات عديدة بين الوفد وبين مختلف مستويات المسؤولية في الدولة والأحزاب الوطنية والمنابر الفكرية والسياسية العديدة، وجرى الحوار كلما أمكن إجراؤه في جو ودي أخوي شفاف كما هو معروف عن الأشقاء السودانيين. وكانت أجواء السودان السياسية في تلك الفترة بعد عامين من حركة تغيير رأس الحكم باعثة لدى العديد من الأطراف العاملة في السودان روح الأمل والتفاؤل في المستقبل. واستقبل الملاحظون من غير السودانيين

مبادرة رئيس مجلس رأس الدولة بتتحيه عن الحكم برضاه وإيرادته بعد أن أحس أن الأمور قد استقرت في البلاد بعد عامين من الإطاحة بالرئيس جعفر النميري، وقد تكون مبادرة السيد سوار الذهب فريدة يتيمة دهرها في عالمنا على الأقل.

وخلال اللقاءات التي تمت بين الوفد وبين مختلف الأطراف السودانية في الدولة والتنظيمات المتعددة من أقصى اليسار لأقصى اليمين كان سي مولود خير مستمع، وخير مؤازر ومتعاطف حيث ينبغي ذلك ولا يجوز غيره كما كان واسع الاطلاع على ما يهم الطرف الآخر وما يفيد في كثير من الأحيان. ولقد علق على مبادرة الرئيس المتخلي عن الحكم طوعا أثناء استقباله للوفد ما زاد من حماس "سوار الذهب" ليزيدنا فيضا من بواعثه ومقاصده الوطنية فيما قام به !

أما حين اضطر الفقيه إلى التخفيف من قيود البروتوكول واعتبارات الضيافة فذلك كان أثناء عشاء في بيت رئيس الوزراء السيد الصادق المهدي حضره المسؤولون وأعيان البلد، وأعمدة التيارات السياسية وأخذ الحديث مسالك عديدة توقف مطولا عند قضية التعريب في الجزائر وعلق السيد المهدي على الموضوع قائلًا بأن التعريب لم يكن على ما يرام وأن جهات في البلاد تعرقل مسيرته. لم ينتظر سي مولود أن يكمل المضيف حديثه إذا انتفض وأطلق العنان لنفسه متهما - أولا - أشقاءنا العرب بلا مبالاتهم وعدم اهتمامهم بما يجري في الجزائر سواء قضية التعريب أم غيرها، لذلك فإن أحكامهم تأتي في غالب الأحيان مخالفة للحقيقة والصواب ثم أبحر في فترات بعيدة من تاريخنا ومساهمات الجزائر في تعريب المنطقة، وذكر

الكثير من علمائها تم عرج على مراحل المأساة التي حلت بالجزائر بالاستعمار الفرنسي الذي استهدف اللغة والدين في المقام الأول، وخطط لذلك منذ اللحظة الأولى من هجومه على أرضنا، ومع ذلك فإن التاريخ لم يشهد صمودا مثل صمود شعب الجزائر بجميع فئاته دفاعا عن هويته وأرضه وعرضه. واسترسل شارحا ومستشهدا بالماضي وبجهود الحاضر وبطموح كبير للمستقبل وعدد الإنجازات وتحدث ثم تحدث وأفاض وأفحم حتى اعتذر رئيس الوزراء واعترف بتقصير العرب في تعرف بعضهم على بعض، وأثنى عليه ثناء ليس بغريب على لباقة وأخلاقيات السودانيين.

وفي الغد التالي اقترحت على الرفيق أن نزور بمعية السائق موقعا في الخرطوم من أروع المواقع الطبيعية حيث يلتقي النهران العملاقان عند رأس مثلث هما: النيل الأبيض والنيل الأزرق. المياه هي المياه بيد أن كل نهر من النهرين ظل محافظا على ملامحه التي جاء بها عبر آلاف الكيلومترات، وفي لحظات التماس بل الاحتضان والمعانقة يذوب بالتدرج هذا "الأنا" العملاق في "الأنا" الثاني ليصبحا - لو صدقت عزائم الناس - خيرا عميما يفيض على أهله وعلى الآخرين.

ويسمى هذا الموقع الذي تم فيه التلاقي والتلاحم "بالمقرن" مقرر النيلين: الأبيض والأزرق وشاء ذلك الموقع الذي زرناه أن يخرس اللسان حتى لا يعود ثانياة إلى تعذيب الذات بالمقارنة بين المفارقات.

تغمذك الله برحمته الواسعة وإلى يوم التلاقي !!

